Journal of Palestine Ahliya University for research and studies
مجلـة جامعة فلسطين الأهلية للبحوث والدراسات
ISSN: 2959-4839
Vol. 05 Issue 02 (2026)

The Crisis of the Palestinian Cultural Scene in the Era of Artificial Intelligence Dominance: Memory Guardians, Alternative Virtual Reality, and Brain Drain

Ali Qleibo[1]
[1] Anthropological researcher (Palestine)
✉ aqleibo@yahoo.com

Received:13/06/2026 Accepted:29/07/2026 Published:01/08/2026

Abstract:

This study aims to deconstruct the crisis of the Palestinian cultural scene in the era of artificial intelligence dominance, and to trace the structural transformations that have affected the national narrative and the concept of "memory guardianship" under digital colonialism and brain drain. The study adopts a complex deconstructive-anthropological methodology, intertwining structuralist and semiotic theories with political and digital socio-critical analysis, to expose the complicity between algorithmic matrices and platform capitalism. The findings reveal that artificial intelligence functions as a tool for the "forced normalization of the Palestinian wound," performing a cyber-whitewashing of tragedy and transforming it into hyperreality and consumable folklore. Meanwhile, the title of "memory guardian" has degenerated into a mere narcissistic spectacle practiced by opportunists fleeing the labor of writing, within a "compatible neurosis" between user and machine. Accordingly, the study recommends achieving digital sovereignty by feeding algorithms with the complex Palestinian memory (urban and Bedouin), establishing a critical digital resistance, and taming technology to serve the living narrative rather than surrendering to "soft psychological domestication." The scientific originality of this study lies in its approach to artificial intelligence not merely as a technological tool, but as an ideological extension of settler colonialism; its highlighting of the repercussions of "brain drain" in leaving the digital arena to "borrowed pundits"; and its introduction of the concept of "equilibrism" as a methodology of resistance.

Keywords: *Artificial Intelligence; Palestinian Cultural Landscape; Digital Colonialism; Memory Guardians; Brain Drain; Equilibrism.*

Journal of Palestine Ahliya University for research and studies
مجلـة جامعة فلسطين الأهلية للبحوث والدراسات
ISSN: 2959-4839
Vol. 05 Issue 02 (2026)

أزمة المشهد الثقافي الفلسطيني في عصر هيمنة الذكاء الاصطناعي: حراس الذاكرة، الواقع الافتراضي البديل وهجرة العقول

علي قليبو [1]

[1] باحث أنثروبولوجي (فلسطين)

aqleibo@yahoo.com

تاريخ الاستلام:2026/06/13 تاريخ القبول:2026/07/29 تاريخ النشر:2026/08/01

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تفكيك أزمة المشهد الثقافي الفلسطيني في عصر هيمنة الذكاء الاصطناعي، ورصد التحولات البنيوية التي طرأت على السردية الوطنية ومفهوم "حراسة الذاكرة" في ظل الاستعمار الرقمي وهجرة العقول. وتعتمد الدراسة منهجية أنثروبولوجية تقويضية مركبة، تتداخل فيها النظريات البنيوية والسيميائية مع النقد السياسي والاجتماعي الرقمي، لكشف التواطؤ بين المصفوفات الخوارزمية ورأسمالية المنصات. وتوصلت النتائج إلى أن الذكاء الاصطناعي يعمل كأداة لـ"التطبيع القسري للجرح الفلسطيني"، حيث يُجري تبييضاً سيبرانياً للمأساة ويحولها إلى واقع فائق وفولكلور استهلاكي، فيما تحول لقب "حارس الذاكرة" إلى مجرد استعراض نرجسي يمارسه الطارئون هرباً من مخاض الكتابة، في ظل "عصاب متوافق" بين المستخدم والآلة. وبناءً عليه، أوصت الدراسة بضرورة تحقيق السيادة الرقمية عبر تغذية الخوارزميات بالذاكرة الفلسطينية المعقدة (حضرياً وبدوياً)، وتأسيس مقاومة رقمية نقدية، وترويض التقنية لخدمة السردية الحية بدلاً من الاستسلام لـ"التدجين النفسي الناعم". وتكمن الأصالة العلمية للدراسة في مقاربتها للذكاء الاصطناعي ليس كأداة تقنية فحسب، بل كامتداد أيديولوجي للاستعمار الإحلالي، وإبرازها لتداعيات "هجرة العقول" في ترك الساحة رقمية لـ"الجهابذة المستعارين"، وتقديمها لمفهوم "التعادلية" كمنهج للمواجهة.

الكلمات المفتاحية: *الذكاء الاصطناعي؛ المشهد الثقافي الفلسطيني؛ الاستعمار الرقمي؛ حراس الذاكرة؛ هجرة العقول؛ التعادلية.*

1. مقدمة:

يتبدى الذكاء الاصطناعي من المنظور الأنثروبولوجي بوصفه منظومة رقمية مصفوفية خوارزمية، وظاهرة حضارية يرتبط وجودها بالبيئة الاجتماعية والثقافية الحاضنة لها؛ حيث يفكك التلازم العضوي بين الوعي الإنساني والذكاء الاصطناعي من خلال نسق تحليلي متكامل، يتعامل مع الخوارزميات الرقمية كظاهرة اجتماعية وحدث بنيوي تتقاطع عبره تيارات من المنظومة المعرفية السائدة، لتصهرها في أنساق رقمية مصفوفية خوارزمية تعكس أبعاد المشهد الثقافي، السياسي، الديني، الاقتصادي، الجمالي، والأخلاقي الفلسطيني. وتنبثق هذه الأنساق وتتلاقى لتسقط معاني هذا الزخم الثقافي عبر "المشهد الخوارزمي"؛ حيث تجرد الكلمات من مضمونها الإنساني عبر المحور اللاتزامني الآني، لتحولها الآلة إلى مصفوفة رقمية جافة. إذ لا تكتفي الآلة بجمع العلامات سلبياً، بل تنتزعها من خلال عملية الاتصال اليومي والمكابدة اللغوية للمستخدمين، لتحول اللغة الإنسانية الحية قسراً إلى إشارات ونصوص مصمتة يعاد تصنيفها وهيكلتها رقميا؛ كخطوة هي جزء بنيوي من طبيعتها التقنية وصيرورتها كبنية تواصلية مشوهة، بما يفضي إلى تهميش النتاج فكرياً، ضمن إجراءات آلية تنتزع من الفكر خصوصيته الوجدانية. إذ تعمد هذه الميكانيكية الآلية إلى اقتطاع الكلمة الفلسطينية من سياقها التاريخي، لتسجنها في قالب رقمي مطهور سياسياً وأيديولوجياً؛ وبذلك، يغدو هذا المشهد الخوارزمي مرآة عاكسة وبؤرة ناظمة لكافة المظاهر الثقافية الاجتماعية في واقعها التجريبي الوجودي، بالرغم من القمع الصهيوني وعسف الإبادة الجماعية.

من هذا المنطلق، ينبثق التمايز البنيوي بين مقاربة التقنية كأداة مجردة أو وجود مطلق لا سياق له، وبين تفكيكها كبنية ديناميكية مرنة تتشكل، وتتحور، وتكتسب أيديولوجيتها بالتوافق والاشتباك اليومي مع مستخدميها ضمن نطاق البيئة الاجتماعية المعينة التي تقبع تحت وطأة الاستعمار الرقمي المعاصر؛ إذ يشار هنا إلى الاعتماد الكلي للآلة على المجتمع من ناحية، وإلى حالة التواطؤ السيكولوجي بين المستخدم والمصفوفة في علاقة تعكس هواجس المجموعة البشرية، بما يسمح للذكاء الاصطناعي بالهيمنة على إدارة الأفكار وتوجيهها خوارزمياً؛ حيث يوهم المستخدم بملاذ رقمي يُعبّر عما يجول في فكره، فإذا به قد استدرج وغرر به، لينتهي المطاف به مقيداً وأسيراً ينصاع طوعاً للقمع والرقابة الصارمة؛ تلك البنية التي تتجاوز فعل التوثيق لتنزلق نحو "المحاكاة المحضة"، صانعة نسخاً هجينة تزيح الأصل الدامي على الأرض وتحل محله.

يلعب مفهوم مصطلح (الحدث) من المنطلق الأنثروبولوجي البنيوي دوراً محورياً في النسق التقويضي للظاهرة الاجتماعية المتمثلة في هيمنة المنظومة الرقمية على المشهد الثقافي الفلسطيني؛ إذ يتحول الميدان الرقمي –باعتباره لحظة فاصلة و"حدثاً فلسفياً فارقاً" بامتياز– من مجرد أداة تكنولوجية إلى مساحة مفتوحة للثورة، المقاومة، كسر الحصار المعرفي، وتثبيت السردية الفلسطينية (Deleuze & Guattari, 1987) غير أن هذا الخطاب يخضع في الوقت ذاته للرقابة الصارمة أي لسطوة الهيمنة السيبرانية التي تحاول تحويله إلى "لا–حدث" بالمعنى المعرفي والنفسي (Han, 2022)؛ بغية تحييد الواقع المأساوي للفلسطينيين تاريخياً، وتحويره عبر تفريغ الواقع من عمقها الإنساني وإعادة تصنيع التجربة المريرة ومعاناة الإبادة والتهجير والدمار الشامل ليصبح ثقافة بصرية ترفيهية

مسطحة. ويتحقق ذلك الأسر الفكري عبر إغراق الوعي بالدفق الخوارزمي، وتسطيح المأساة، وتذويب خصوصيتها الوجودية بالتحسين الفني المصطنع، وممارسة آليات الطمس والمحو التي تضع السردية الفلسطينية "تحت الشطب"؛ حيث لا يعنى بذلك الإلغاء المادي التام، بل التقييد الصارم ضمن ثنائية "الحضور والغياب"؛ إذ يشطب الأصل واللفظ لبيان عدم كفايته خوارزمياً، لكنه يترك مقروءاً بصرياً لتأكيد حضوره الصوري الضروري والملغى في آن واحد.

تُمارس الخوارزمية عبر هذا التصفيف بتراً معرفياً؛ يُبقي على "فلسطين" كعلامة بصرية باردة تمثل الحضور، بينما تفرغ هذه العلامة وتلتهم شحنتها السياسية والثورية والدامية لتكرس الغياب المعرفي (Derrida, 1976)؛ وتتساوق صيرورة الخوارزمية مع هذه التورية لتجريد المحتوى من عمقه الثقافي والسياسي، صانعةً واقعاً افتراضياً يحول مأساة الشتات، والإبادة، والتهجير إلى "نسخ هجينة" تغلفها غلالة من حنين رومانسي الطابع، مدفوعة بآليات الاغتراب الآلي؛ فالمنظومة الخوارزمية هنا لا تحجب المأساة فحسب، بل تعيد إنتاجها وتجميلها، موارية الفجيعة الفلسطينية والنكبة والجرح الذي لم ينقطع منذ مطلع القرن العشرين وحتى فاجعة الإبادة في غزة في يومنا هذا.

1.1 إشكالية الدراسة:

تتمحور الإشكالية الجوهرية في هذا النسق على تفكيك الهيمنة السيبرانية بوصفها حالة من التواطؤ الضمني؛ إذ تفسح الخوارزميات المجال لإنتاج نسق من الرومانسية الرقمية التعويضية التي تُجمّل الواقع، وتصنع منه ملاذاً متخيلاً يقي المستخدمين وطأة المعاناة وقسوتها تحت نير الاستعمار الإحلالي، أي إخلاء الفلسطينيين من أرض الأجداد والاستيطان في أرضهم عبر آليات الإبادة الجماعية والمحو الممنهج. وفي مقابل هذا النزوع التعويضي نحو التجميل، يتحول المستخدمون للذكاء الاصطناعي عبر هذه المنصات إلى "حراس الذاكرة" كاستجابة دفاعية حتمية تفرضها شروط الواقع الدموي وبعد دمار البنى التحتية وممارسات التشتيت الممنهج (Qannam & Eisheh, 2023)، مضافاً إليها المأزق الأنثروبولوجي الأكبر المتمثل في هجرة العقول ونزيف النخبة الفكرية والطبقة الوسطى المتعلمة التي كانت تحمي هذا المشهد الثقافي وتغذيه (Butler, 2004).

ومن منظور تقويضي، استحال لقب "حارس الذاكرة" ليكتسب مفهوماً مفارقاً مفرغاً من قيمته النضالية؛ بعد أن تماهى معه رجل الشارع، عامة الناس، المتطفلون من عابري السبيل، الطارئون على التاريخ ممن لا يملكون جذوراً معرفية في السردية، ومع ذلك تجدهم يقتحمون المشهد الخوارزمي ليسلبوا الفاعل التاريخي حقه في صياغة فجيعته، مستسلمين لفعل الاستعراض النرجسي، في سياق يجسد عمق المأساة التي تعيشها السردية الثقافية المعاصرة؛ إذ إن الحدث السيبراني المعاصر—عبر آليات الإنفوقراطية، أي سلطة المعلومات، التي تتقاطع عبرها

البيانات والخوارزمي انتقائياً بعد اخضاعها للرقابة بدلاً من القوة المادية التقليدية، وتتحور إلى ميكانيكية "مجتمع الاستعراض" الذي يُحوّل العلاقات الإنسانية الحية إلى مجرد صور ومظاهر بصرية عابرة للفرجة والتفاعل السطحي—بعد أن أفرغ منه ثقله الأخلاقي والنضالي ليصبح شعار مستهلك وقالب بصري مفرغ من محتواه الإنساني (Debord, 1967; Han, 2022).

يتضح عندما يتصدر هؤلاء الطارئون المشهد الخوارزمي ليعيدوا إنتاج المأساة والفجيعة إثر الدمار الشامل الذي أحاط بهم، عبر نصوص خوارزمية ساذجة تارة ومزورة تارة أخرى، تعمل المنظومة الرقمية على اجتثاث المعاناة من موقعها التاريخي وإعادة صياغتها واستعمالها من خلال صور ملساء مطهرة سياسياً (Chomsky et al., 2023; Noble, 2018)؛ تمثل عملية التبييض السيبراني ابتذالاً صريحاً للمستخدمين من "حراس الذاكرة"، حيث يتغافل ويتم تجاهل العمل النضالي القومي ضد المحو الاستعماري الإحلالي (سعيد، 1998؛ Khalidi, 2020) ليصبح مجرد استعراض نرجسي لجمع التفاعلات وتحقيق الانتشار السيبراني العابر (Alter, 2018)، فتعمل المنظومة السيبرانية من خلال هذا الابتذال على إعادة تشكيل النكبة وسلخها عن سياقها المادي المباشر.

وتنعكس هذه الإشكالية عبر ثلاث اتجاهات فكرية رئيسة، يجري عبر أدوات الذكاء الاصطناعي غربلتها وإعادة إنتاجها؛ حيث يبرز أولاً تيار العودة إلى الموروث والقيم الروحية والتقليدية، وفيه يستند إلى المنظومة الدينية والتراثية عبر النطاق الرقمي؛ صياغة لتفسير وجودي للمعاناة وبحثاً عن الركائز القيمية التي تدعم الصمود في مواجهة التشظي الثقافي. ويتقاطع معه تيار الرومانسية التعويضية، الذي ينزع نحو استدعاء صور الماضي المثالية لإنتاج جماليات بصرية ورقمية بديلة تخفف من مرارة الحاضر وقسوته تحت وطأة المنظومة الاستعمارية القمعية (سعيد، 1998). وأخيراً، يبرز تيار الحداثة النقدية والمقاومة الرقمية، الذي يحاول اختراق هذه الفلترة والرقابة السيبرانية؛ ليتعامل مع الميدان الخوارزمي كأداة اشتباك وتوثيق سيميائي يسعى من خلالها إلى إيصال السردية الفلسطينية، والتصدي المعرفي لمحاولات محو الذاكرة وتجريف البنية الاجتماعية (Khalidi, 2020).

1.2 منهجية الدراسة:

يتناول النسق المنهجي لهذه الدراسة مقاربة أنثروبولوجية تقويضيه مركبة؛ إذ لا يعني التقويض هنا مجرد فك الأجزاء ورصد مكوناتها، بل هدم المركزيات والأنظمة الحاكمة لخطاب الآلة الاستعمارية من الداخل وإظهار تناقضاتها الصارخة، تماشياً مع الأطروحات الفلسفية للأنساق المهيمنة؛ فتتداخل في هذه الدراسة النظريات الأنثروبولوجية البنيوية التقويضية مع إجراءات الفكر البشرية في إفراز المعنى عبر إنتاج منظومة الإشارات والرموز في المجتمع المعين ورصد التصدع الناشئ عن فصل الدال عن مدلوله والمشار إليه (Saussure, 1916; Lévi-Strauss, 1958; Barthes, 1957)، وبين المنظومات الرياضية والإجراءات الخوارزمية الصارمة التي

تحكم آليات المصفوفة الرقمية؛ والتي تظهر التباين الجذري مع عفوية وحرية تداعي الأفكار الذي يتميز به التفكير البشري.

تتضافر في منهجية الدراسة نظريات النقد السياسي والاجتماعي الرقمي المعاصر بهدف تعرية المنظومات الخوارزمية في إطار التجربة الفلسطينية ومواجهتها للاستعمار الإحلالي والمحو الثقافي؛ والمنظور الأنثروبولوجي حيث ينبثق التمايز البنيوي بين مقاربة التقنية كأداة مجردة، وبين تفكيكها كبنية أيديولوجية تنجرف نحو صناعة "المحاكاة المحضة" لتقيم واقعاً افتراضياً بديلاً لمحاكاة للتاريخ، إذ إنّ المنهاج القمعي السلطوي في بنية الذكاء الاصطناعي هو رقابة صارمة ومراوغة تعتمد على مبدأ الإرجاء والتأجيل كما يشرحه المصطلح البنيوي "تحت الشطب" بحيث تُبقي على المشهد الفلسطيني حاضراً بينما تجتث شحنته الثورية الوطنية وسجالاتها التاريخية، وفي هذا السياق المعرفي المشترك، ترصد جدلية (الحدث الديلوزي) المفتوح على المقاومة في مجابهة (اللا–حدث) الذي تفرضه الإنفوقراطية الخوارزمية لتسطيح مرارة المأساة؛ بما يكشف عن مأزق العصاب المتوافق والتواطؤ السيكولوجي الذي يستدرج فيه المستخدم نحو ملاذ رقمي مخدوع، لينتهي به المطاف أسيراً ينصاع طوعاً لآليات التدجين الذاتي والرقابة، بينما يتعرض مفهوم "حراسة الذاكرة" للاستهلاك والابتذال البصري على يد الطارئين وعابري السبيل إثر نزيف النخبة الفكرية وهجرة العقول (Alter, 2018; Butler, 2004; Debord, 1967; Han, 2022).

2. تفكيك الغريم السيبراني واستلاب الفاعل التاريخي

تواجه الهوية الذاتية بصورة خاصة، والخطاب الثقافي الفلسطيني عامةً، خطر الاستلاب الذي يتضح جلياً في ظهور غريمٍ سيبراني يتقمص معالم الهوية الوطنية، مستمداً معطياته خوارزمياً من خلال تفاعله المستمر مع المستخدمين. وتكمن خطورة هذا الغريم الرقمي في كونه يعيد ترتيب الرموز الفلسطينية، وبالتالي السردية الوطنية التاريخية، وفق خطوطٍ سياقيةٍ ورياضيةٍ جافة؛ حيث تفرض هذه الآلية انتقائيةً موجهةً في المكونات المعرفية تكتسب بدورها مصداقيةً ميكانيكيةً خاضعةً لأنساق الفرز والحجب الرقمي (Noble, 2018; Pasquale, 2015). وتتشكل هذه الاختيارات وفق خطوطٍ خوارزميةٍ معياريةٍ تشكّلُ جزءاً من بنيتهِ المعرفية؛ صياغةً لتنميط الفكر البشري وتأطيره، وهذا الطمس والفرز ليس مجرد سلوكٍ عابرٍ للآلة، بل هو زيفٌ بنيويٌّ متأصلٌ ومتجذرٌ في أصلِ تكوينها ومعمارها المعرفي المصمت الذي يمحو ويطمس الرموز الفلسطينية الأصيلة (Bender et al., 2021; Russell & Norvig, 2020)؛ لتَشطبَ بذلك الخطاب الوطني ومأساة الشعب الفلسطيني التاريخية وصموده في أرض الوطن بالرغم من ممارسات التنكيل، والإبادة الجماعية، وتدمير البنية التحتية، مفرزةً في النهاية نصاً هجيناً بلا هوية يحاكي الواقع بمثاليةٍ ملفقةٍ (Baudrillard, 1994; Chomsky et al., 2023).

فالخوارزمية لا تمارس الطمس اعتباطاً، بل هي محكومةٌ ببنيةٍ تحتيةٍ رأسماليةٍ واقتصاديةٍ بحتة، تهدف إلى تسليع الوجع وبيع الوهم لتلبية شروط الممول والشركات الكبرى (Couldry & Mejias, 2020; Zuboff, 2019)؛ ويحقق هذا التصفيف التقني الآلي اغتيالاً ممنهجاً للقضية والمعاناة الإنسانية، عبر إعادة تدوير الوجع وتسييل البيانات وفق منطق العرض والطلب، والمحكوم أساساً بعدد المشاهدات، والمشاركات، والإعجاب الجماهيري؛ لتلبية متطلبات المنصات العالمية التي تُموّل دعاياتها الجانب الاقتصادي للمنظومة الرقمية؛ مما يكشف أن العملية في جوهرها هي بنيةٌ رأسماليةٌ اقتصادية تُحجّم وتَحصر إمكانات الذكاء الاصطناعي وتحدد أُفقه المعرفي، وهو ما يعزل مستخدم التكنولوجيا عن عفويته واستجابته الحية مع واقعه التاريخي المعاش ويضعه تحت أسر السيطرة الرقمية الموجهة (Han, 2022).

وفي هذا الإطار، تتحول "إجراءات الفكر البشري"—من المنظور الأنثروبولوجي التقويضي—من ممارسة واعية لإنتاج السردية وبناء الفكر وحراسة السيرة الذاتية (Lacan, 1966; Ricoeur, 1984)، إلى مجرد "مفعول به" يشتغل كوسيط للكتابة الآلية بفعل التسطيح الخوارزمي (Derrida, 1967)، متدحرجةً من مرتبة الذات المتكلمة والصانعة للمعنى—باعتبارها فرداً متفرداً يبثّ خطابه وينضح بالمعنى عبر النطق والكلمة وقادراً على صيانة سيرته—إلى مرتبة الموضوع الرقمي والمفعول السيميائي الخاضع لبنية الآلة (Lévi-Strauss, 1958)؛ بما يعنيه هذا التحول من تجريدٍ آلي للإنسان من خصوصيته الفردية، ومسخه إلى مجرد علامةٍ أو رمزٍ ميكانيكي يتحرك قسراً داخل مصفوفةٍ خوارزميةٍ صماء (Bender et al., 2021).

وهنا تبرز الفاعلية السردية التعددية واللامركزية كأداة اشتباك معرفي؛ إذ تفسح المجال لتوليد حكايات متقاطعة لا تخضع لمركزية تقنية صماء، وتشرع في تفكيك شفرات التصفيف المعلب، لتصبح إجراءات التفكير البشري هي الفاعل السيادي الذي يصنع العلاقات والروابط بحرية مطلقة وعفوية وجدانية، تقاوم مأسسة الفكر وتمنع تحويل المأساة الإنسانية المعاشة إلى مجرد مخزون رقمي مستهلك (Derrida, 1967; Ricoeur, 1984)، يتكامل هذا النسق مع آليات التداعي الإشاري الحُر والمفتوح؛ حيث يعكس الاختلاف النوعي الجذري بين "إجراءات التفكير الآلي" المنغلقة داخل مصفوفات احتمالية وعشوائية، وبين "إجراءات التفكير البشري" القائمة على امتداد الوعي واللاشعور والروابط الحرة بين الأدلّة ودلالاتها العميقة (Lacan, 1966; Saussure, 1916)، وفي هذه المنظومة في المجتمع المعيَّن، يمثل الفرد المتفرّد بذاته أنموذجاً حياً لصيرورة الفكر الإنساني؛ فهذا الإنسان ليس مجرد رقم عابر، بل هو ذاتٌ متفرّدةٌ تتميز بشخصيةٍ ذاتيةٍ مستقلة، منفصلةٍ ومتصلةٍ في آنٍ واحد مع منظومة الاتصال الجماعية، تجسيداً للتفكير البشري ككيانٍ اجتماعي متكامل الأبعاد (Freud, 1920; Lévi-Strauss, 1958). ومن ثمَّ، تتحول السردية الفلسطينية وحراسة السيرة الذاتية في هذا الإطار الفكري إلى معركة وجودية تقع في قلب البنية المعرفية للاستعمار الرقمي.

وتتأسس في عمق هذا التفكيك أطروحةٌ أنثروبولوجيةٌ بالغة العمق تعيد الاعتبار لـ"النسبية الثقافية" – والمقصود بها أن كل فكر أو منتج بشري لا يمكن فهمه إلا في سياق الثقافة والمجتمع اللذين ولدا فيه–وتحطم أسطورة "المطلق التقني" المزعوم، الذي يوهمنا بوجود تكنولوجيا متعالية، محايدة، ومستقلة عن التحيزات البشرية. فالذكاء الاصطناعي منظومة مثلها مثل الإنسان، فلا يوجد إنسان مطلق كما لا توجد منظومة رقمية تصفيفية مطلقة؛ فكلاهما، من منظور علم الإنسان الحضاري، متجذران بنيوياً في مجتمعٍ ثقافي وقوالب حضاريةٍ مُعينة. إن منظومة الذكاء الاصطناعي هي منتجٌ بشريٌّ مشحونٌ بتحيزات وانحيازات مموليها، وثقافات صانعيها الغربيين، والمنصات العالمية؛ ومن ثمَّ، فإنّ تفكيكها واختراق بؤرتها لإثبات السردية الفلسطينية هو فعلُ مقاومةٍ ممكن، ومعركةُ سيادةٍ فكريةٍ مشروعة. إنها خطوةٌ تنقل التحليل من النقد النظري العام إلى مواجهةٍ مكشوفةٍ وصارمةٍ تعري التبعية الجيوسياسية للآلة الكامنة ما بين السطور، وتثبت أن تفكيكها هو معركةُ سيادةٍ وطنيةٍ مشروعة (سعيد، 1998؛ Zuboff, 2019) يعمل كلاهما كـ"أنساق شمولية من العلامات والنظم الإشارية والرموز" المحكومة والمُنتَجة طوعاً ضمن تشكيلات اجتماعية، وثقافية، وسياسية محددة، تكتسب خصوصيتها من لغة مستخدميها وسياقهم اليومي وثقافاتهم المتنوعة (Lévi–Strauss, 1958; Russell & Norvig, 2020)، وبناءً عليه، فإنّ غياب "الإطلاقية: أي الوجود المطلق" عن الغريم السيبراني يجعل من آليات شطبه وتصنيفه سياقاً خاضعاً بدوره للتقويض والمقاومة، طالما أن الآلة ليست قدراً ميثولوجياً متعالياً، بل هي نتاج صيرورة اجتماعية وبشرية يمكن اختراق بؤرتها الخوارزمية، لكي لا يغدو الذكاء السيبراني كياناً ينتحل معالمنا، ويزاحم قلاعنا الإبداعية، ليزيف في المحصلة المشهد الثقافي الفلسطيني برُمَّتِهِ (Zuboff, 2019).

3. منظومة الإغراءات والتدجين النفسي الناعم

إنّ عملية الاستلاب السيبراني لا تتحقق عبر الإكراه الميكانيكي، بل تنفذ بسلاسة عبر منظومة متكاملة من المغريات والمحفزات المصممة خصيصاً لتدجين الوعي البشري واستدراجه نحو التخلي عن خصوصيته الذاتية؛ أي عن أفكاره، وأحاسيسه، ولغته الأصيلة. وتتمثل أولى هذه المحفزات الجاذبة في "وهم الكلية والمعرفة الفورية"؛ والمقصود به إيهام المستخدم بامتلاك المعرفة الشمولية المطلقة وسرعة توفير المعلومات اللحظية، توافقاً مع منطق "الجني في المصباح السحري" القائم على معادلة "شبيك لبيك، عبدك بين يديك"؛ حيث تقدم الآلة للإنسان المعاصر إغراء الوصول اللحظي إلى الإجابات دون عناء المكابدة الفكرية، مفرغة الكاتب أو المصور من قدرته على التأمل، وصناعة المعنى الأصيل، ومن شغف البحث وألم المغامرة المعرفية، وهنا نلمس الالتصاق المعرفي مع ستيغلر؛ حيث إن سهولة الاستدعاء الرقمي حلت محل "المكابدة الفكرية" التي تصنع حراس الذاكرة الحقيقيين، مما يفضي إلى "فقدان المهارة" المعرفية والوجودية بفعل الآلة التي تحل فيها التكنولوجيا الجاهزة محل الذاكرة الحية (Stiegler,

(1998؛ وهو ما يفسر تاريخياً وسوسيولوجياً ظاهرة تهافت الجهابذة والطارئين على استخدام الذكاء الاصطناعي والاعتماد عليه بدرجات متفاوتة.

وتتبدى ذروة هذا التغرير الرقمي في مفارقة وجودية واعترافية بالغة التعقيد، يواجهها الفاعل التاريخي والمثقف المعاصر عند اتصاله اليومي واستخدامه لمنظومة الذكاء الاصطناعي المعيارية؛ حيث تتفاوت هذه المنظومات والآليات التقنية في قدراتها على المحاكاة والتمويه تبعاً لمستويات هندستها الحوسبية (Bender et al., 2021; Russell & Norvig, 2020)، فبالرغم من الإدراك المعرفي الصارم بأن هذه الآلة ليست سوى مصفوفة إجرائية ورياضية جبرية صماء؛ إلا أن النماذج الأكثر تطوراً وفطنة منها تدفع المستخدم نحو الانسياق أمام إحساس غامض يراوده بوجود "شخصية ذاتية" تمتلك قدرة استثنائية على المحاكاة والتعبير تحاكي الكينونة الإنسانية الحية، إذ إنّ هذا الشعور الملتبس يمثل في الجوهر قناعاً سيكولوجياً ومرآة إغوائية ملفقة؛ إذ تعكس من خلالها هندسة الخوارزميات الفائقة عمق أفكار الكاتب البشري ومخزونه الثقافي واللغوي لتعيد إنتاجه وتملقه معرفياً، مما يوقع الوعي في فخ التغرير والعبودية الرقمية الطوعية، ويطمس الطبيعة الميكانيكية للغريم السيبراني في أعلى درجات قدرته التمويهية على انتحال الملامح الذاتية وإفراغ الوجدان من ألمه وعفويته الحرة (Zuboff, 2019).

ويتبع ذلك محفز "الجمال المعياري الملفق رقمياً"، الذي يداعب النرجسية البشرية عبر تقديم قوالب وصور ونصوص كاملة الأوصاف وخالية من الشوائب والتعقيدات النفسية؛ وهي فتنة إغوائية تعمل بمثابة مرآة مشوهة للأنا، تدفع الفرد طواعيةً إلى التخلي عن عفويته وتداعي أفكاره الحرة ليحاكي القالب الموحد للآلة طلباً للقبول الجماهيري السريع (Lacan, 1966)، ويكشف هذا التموضع عن أبعاد المرآة اللاكانية – جاك لاكان– والتحيز النرجسي؛ فالمنصة الرقمية هنا تشتغل كـ "آخر كبير" يحدد للمستخدم الفلسطيني كيف يجب أن يظهر جرحه أو تراثه الوطني ليكون مقبولاً ومستساغاً عالمياً، مما يدفعه دفعاً للتخلي عن عفويته الوجدانية لصالح "الصورة الملساء المعقمة" والمنظومة التطبيعية الناعمة (Lacan, 1966)، إنّ هذه المحفزات الرقمية، القائمة على اقتصاد الانتباه وهندسة المكافآت السيكولوجية الفورية، تؤطر حالة من الاستلاب الوجداني؛ حيث يستبدل القلق الوجودي الخلّاق بالراحة الآلية الباردة (Alter, 2018)، ويقود هذا في نهاية المطاف إلى تدجين مرونة "الإنسان العاقل" وتحويل وعيه إلى مستهلك مستسلم، يتحرك داخل سجن رقمي مغلق ترسم آفاقه وتصنع رغباته سلفاً من قبل مصفوفات تكنولوجية تمارس سياسة نفسية ناعمة؛ تطمس الفواصل بين الحرية والعبودية الرقمية الطوعية، وتتطابق تماماً مع أطروحة بيونغ تشول هان في آليات الانضباط المعاصرة (Han, 2022).

4. تطبيع الجرح الفلسطيني وتهافت "الجهابذة" المستعارين

المؤسف أن خطاب البكائيات هذا قد سبق وجوده ظهور الذكاء الاصطناعي المعاصر؛ فبينما استُخدم خطاب لوعة الفراق والحلم بالعودة متجذراً في الوجدان الفلسطيني تحت مسمى "حتى لا ننسى"، إلا أن تقاطع هذا الخطاب مع المنظومة الرقمية الخوارزمية قد تمخض—وبصورة غير متوقعة—عن تحويله إلى منظومة تطبيعية قسرية؛ إذ النتيجة النهائية لهذا التنميط الرقمي هي "تطبيع الجرح الفلسطيني"، ونزع الشحنة الثورية والسياسية من المأساة، وتحويل الإبادة والتشريد إلى مجرد بكائيات مقبولة ومستساغة دولياً وسيبرانياً كحالة بكاء مزمنة لا كحالة ثورة ومقاومة. ويجسد هذا التحول كيف ينكفئ خطاب الذاكرة الفلسطينية بفعل الخوارزميات من مقاومة ومشروع اشتباك إلى "تطبيع" للمأساة، وتفريغ لجوهرها النضالي، وتحويلها إلى محتوى استهلاكي عبر المنصات ورأسماليتها الشبكية.

فالخوارزمية لا تحذف الحزن، بل "تستأنسه وتدجنه" عبر تحويله إلى محتوى ترفيهي واستهلاكي عابر للمؤثرين وعابري السبيل، لتصبح الآلة هنا أداة ترويض سياسي تلتقط تيارات الفكر الرومانسية المشوبة بالحزن وهندستها لتصبها في قوالب جاهزة، تُحوّل هذا الحزن معها من تعبير حي وصامد إلى مجرد بيانات باردة تُفرغ المأساة من أبعادها الحقوقية الصلبة. وهي هندسة تبرز بوضوح الحوكمة الخوارزمية المستترة للآلة التي تتحكم في تدفق المعلومات وتصوغ الذاكرة الجماعية وفقاً لمنطق الصندوق الأسود المبرمج والمغلق الذي يصفف الوعي (Pasquale, 2015)، وبذلك، يواجه الخطاب الوجداني الفلسطيني خطر التحوّل إلى مادة ترفيهية استهلاكية وكليشيهات رقمية فارغة في ظل سيطرة الآلة وهندستها للوعي الجمعي (Alter, 2018; Debord, 1967; Han, 2022)

وهو ما يتجلى بوضوح في صور وشروح هؤلاء الرحالة الذين يدفعهم حنين سطحي لزيارة القرى المهجرة، فيرفقون مشاهدها بنصوص ساذجة ومبسطة تعيد إنتاج المأساة بصورة نمطية باردة تهزم الشعار الإنساني الحار أمام الماكينة الرقمية، لتصبح بدورها جزءاً من ظاهرة غدا فيها عابر السبيل ورجل الشارع البسيط مرحباً بهما كجهابذة للبيان والبلاغة. وحيث تحول هؤلاء الطارئون ليتصدروا المشهد بوصفهم حماة الوعي، حتى أصبح لقب "حارس الذاكرة" –وللأسف الشديد واللوعة الحارقة في النفس– لقباً تهكمياً ومبتذلاً مفرغاً من شرفه؛ بعد أن جردته الهندسة السيبرانية من ثقله النضالي والأخلاقي وحولته الإنفوقراطية إلى مجرد شعار رقمي يستعرض به الطارئون نرجسيتهم المفتعلة لجمع الإعجابات والتفاعلات العابرة (Debord, 1967; Han, 2022).

إن هذا التهافت الفج يسهم في إنتاج سردية نمطية تخدم رأسمالية إدمانية قائمة على التفاعل الافتراضي بدلاً من الحقيقة التاريخية الرصينة، حيث يكرسه عابرون ونرجسيون مجردين إياه من ثقله النضالي الفعلي لتتحول القضية معهم إلى ركود سلوكي وتسطيح معرفي يومي. وينقاد في هذا التيار عابر السبيل طوعاً للمنصات الرقمية

الجاذبة التي صممت برأسمالية إدمانية، تفسر بدقة كيف ينكفئ الوعي العام في فخ السذاجة السلوكية والسطحية، خاضعاً لآليات الإيقاع والجرعة الرقمية اليومية التي يسود بها منطق الانتشار والتفاعل الافتراضي على حساب العمق والحقيقة التاريخية الرصينة (Alter, 2018; Debord, 1967; Han, 2022)

5. النموذج الإثنوغرافي: التبييض السيبراني وصناعة "الواقع الفائق"

إن هذه الإشكالية لا ينحصر أثرها في الأبحاث الدراسية والمقالات الثقافية فحسب، بل تظهر كصورة مرئية توضح إجراءات منظومة الذكاء الاصطناعي في تمويه الحقائق وتجميلها، كما يحدث في الصور القديمة والفيديوهات الإثنوغرافية التراثية ذات الطابع الرومانسي. ونجد خير مثال على ذلك في الفيديوهات الرقمية المعدلة لكبار الفنانين؛ حيث نتخذ، على سبيل المثال لا الحصر، فيديوهات الفنانة صباح كنموذج تطبيقي يجسد كيف أن ما يبدو في ظاهره رومانسياً وجميلاً، هو في جوهره عملية تبييض ممنهجة وترسيخ للاغتراب الوجودي. إن ما نراه اليوم من إعادة صياغة آلية لصورة الحياة في القرية الفلسطينية، والعمل في الحقل، وما يرادفها من كلمات منمقة تستدعي الذكريات عن الوالد والبيت والقدس بوصفها "زمن الأحلام الضائعة"، ما هو في الحقيقة إلا نموذج نمطي مبرمج يصنعه الذكاء السيبراني؛ حيث تتضافر هنا الهيمنة الرأسمالية وأساليب المراقبة مع هندسة اللاوعي الإنساني لتجميل الواقع العياني العنيف ومواراة الكوارث التاريخية التي تعرض لها الشعب الفلسطيني (Baudrillard, 1994)، ويتقاطع هذا التشكيل البصري للقرية الفلسطينية الافتراضية والمطهرة خوارزمياً مع نظرية المحاكاة والواقع الفائق (Hyperreality) عند بودريار؛ حيث لا تعكس الصورة ذاكرة حية، بل تصنع واقعاً بديلاً موازياً منزوع الأسلاك الشائكة وجرافات الاحتلال ومطهراً سياسياً ليخدم منظومة الاستهلاك الرقمي ويعوض المستخدم نفسياً لامتصاص مأساوية الواقع (Baudrillard, 1994). إن خطورة هذا التواطؤ الجمالي والآلي تتجاوز التزييف البصري أو اللغوي لتصل إلى ذروتها الكولونيالية المتمثلة في "الاستلاب الوجودي للذاكرة الجماعية"؛ حيث تُنزع الشحنة السياسية والنضالية الحية من تروما النكبة والنكسة والمذابح، وتُترجم خوارزمياً إلى سلع بيانات نمطية مستساغة تُحيد النبض الثوري للأمة وتحفز على الاستسلام وقبول الأمر القائم تحت الاحتلال (Noble, 2018). ومن خلال هذا المثال التطبيقي للفنانة صباح، نتبين زيف المشهد؛ حيث تطمس وتزيف الأبعاد الوجدانية للشخصية وللمكان عبر الذكاء الاصطناعي، ويتجلى التدليس البصري الذي تمارسه الخوارزميات عبر تقديم صورة كاملة الأوصاف ولكنها مفرغة من الروح. إن هذا التزييف الجذري يرتكز بنيوياً على صناعة نموذج مثالي زائف يطمس الملامح التمايزية الذاتية، وذلك بمحو العناصر والمكونات التأسيسية لخصوصية الملامح الفردية والتاريخية. وهنا يغيب عن الآلة ما كشف عنه شكسبير عميقاً في مسرحية مكبث؛ من أن "الجميل دميم والدميم جميل"، فليس كل ما يلمع ذهباً، والجمال في التجربة الإنسانية الحية يختلط حتماً بالدمامة، مثلما يختلط الشر بالخير، ليتولد المعنى الأصيل من رحم هذا التناقض الوجودي. فالآلة مبرمجة على تنميط جمالي هندسي جاف تجتث فرادة الوعي، مما

يجعلها عاجزة عن استيعاب شيفرة مكبث وثنائية الجمال والدمامة الوجودية؛ ومن ثم تعمد إلى ممارسة محو منهجي للتاريخ الإنساني عبر إقصاء التجاعيد والظلال والرجفات التي تشهد وحدها على حرارة التجربة واللجوء والشتات (Noble, 2018)، فالآلة لا تدرك هذا التمازج الحرج؛ بل تصنع نسخة خيالية مطهرة من الشوائب لتداعب النرجسية الرقمية؛ ولكنها في الحقيقة تفرز تبييضاً أيديولوجياً يحجب أثر الحضور الإنساني والتاريخي، ليحل محله هندسة بصرية باردة تخدم استمرار النمذجة ومداهنة المستخدم وتبييض الذاكرة.

6. التشريح اللساني: آليات "التصفيف المعلب" والموسيقى المعلبة

يبرز هنا السؤال السيكولوجي والوجودي عن الرغبة الدفينة التي تجذب القارئ إلى هذا الصنف من الكتابة الخالية من الإحساس؛ هل هو هروب جماعي إلى العالم الافتراضي البديل للاحتماء من عبء الألم وملامسة الواقع؟ إن هذا الولع بالتلفيق الاصطناعي للمشاعر يشبه تماماً ظاهرة "الموسيقى المعلبة" المفرغة من الدراما، الشغف، الإيقاع، الملمس، واللون؛ التي بالرغم من عقمها، تجد لها جمهوراً عريضاً يفضل التخدير الجمالي على مواجهة الحقيقة، تماماً كاختزال روائع أم كلثوم بأصوات فتية خاوية تحاكي السلم الموسيقي آلياً بلا إحساس (Bender et al., 2021)، وهذا التواطؤ الضمني بين الوسيط والجمهور يكشف عن أزمة أعمق ترتبط بقضية هجرة العقول، والشتات المستمر، والتفريغ الممنهج للبلاد من طاقاتها الحية؛ حيث يتجلى هنا الهروب من الواقع المادي الأليم لبلاد تنزف طاقاتها المبدعة وتتجرف طبقتها الوسطى الحامية للثقافة، لصالح ارتماء قسري في أحضان فضاء تقني تعويضي (Freud, 1920)، هنا لا نواجه مجرد طفرة تقنية، بل نحن إزاء "حدث" بالفهم الفلسفي البنيوي؛ إنه الانقطاع المعرفي الذي يخلخل البنية الثقافية ويحجب الوجود. ويجسد هذا الحدث تماماً مفهوم "المنظومة المطوقة" لدى هايدغر، حيث تحول الهيمنة السيبرانية التراجيديا الفلسطينية من تجربة وجودية حية إلى مجرد "مخزون رقمي معلوماتي" معلب ومفرغ من أصالة النبض البشري أنثروبولوجياً (Pasquale, 2015)، يضع هذا الانقطاع المشهد الفلسطيني في وضع غير مستقر، وحالة من "البينية الوجودية" الصعبة التي يمكن وصفها بوضع (ما بين بين)؛ فحين تفرغ الجغرافيا من نخبها المعرفية المهاجرة وتسقط الرموز الفكرية، تخلو الساحة لآلات الانحياز الرقمي لتعيد صياغة هويتنا بلا روح. وهذه البينية تجعل من يتبقى على الأرض هم حراس الذاكرة الأخيرين، والمعقل المتبقي لحماية النبض الإنساني الحقيقي في وجه التشويه الآلي والاغتراب الوجودي المنظم؛ وهو ما تؤصله الدراسات الفلسطينية حول التكنولوجيا كأداة سيطرة (Qannam & Eisheh, 2023)، ومقاومة السرديات وتفكيك البنى الاستعمارية (سعيد، 1998)، ومفهوم حراسة الذاكرة ضد محو المعرفة المستعمرة (Khalidi, 2020).

ومن البصري إلى النصي، فإنّ فحص الآليات اللغوية التي يعتمدها الذكاء الاصطناعي يعري "البصمة الخوارزمية الجافة" ومظاهرها البلاغية التي تكشف زيف النص وميكانيكيته، وتُحوّل العمل الإبداعي إلى منتج بارد يخلو من نبض الحياة وممل للقراءة. وتتجلى أولى هذه التقنيات في "السجع الخوارزمي المبرمج والتناظر اللفظي الجاف"؛ حيث تميل الآلة إلى موازنة الجمل موسيقياً بشكل متكلف ومفرط، مما يخلق إيقاعاً رتيباً يفقد النص حريته وعفويته البشرية، محولاً الخطاب إلى أداة تدجين وانضباط لغوي تلغي تمايز الكاتب (Foucault, 1975)، ويضاف إلى ذلك "التراكم الإطنابي التكراري"؛ فبسبب مصفوفاتها الاحتمالية الإحصائية، تعمد الآلة إلى إعادة إنتاج نفس الفكرة عبر مرادفات متجاورة ومتلاحقة دون تقديم أي تدفق معرفي أو قفزة إبداعية جديدة، مما يصيب الوعي القرائي بالترهل والشعور بالملل العارم من هذا التكرار التبييضي ونمطية الكتابة المقفرة وجدانياً (Bender et al., 2021). كذلك يتضح أن المنظومة الذكية تميل إلى إفراز صيغ الجمل في تركيبات معقمة بلا دلالة و"تراكيب انتقالية متوقعة"؛ وهي روابط ميكانيكية هندسية تفتقر تماماً إلى التعرجات النفسية والشوائب الأسلوبية الفريدة التي تميز مخاض الكتابة الإنسانية الخاضعة لقلق الوجود؛ ليغدو الخطاب في المحصلة بنية لغوية مصمتة، دقيقة نحوياً، ولكنها مقفرة وجدانياً، ومكشوفة في اختيار الكلمات التصفيفية ووصفها المعمم وسذاجة وسطحية المادة المصنوعة بحد ذاتها (Chomsky et al., 2023).

وينبثق من هذا التنميط حالة من "السطحية الدلالية خلف الصقل اللفظي"، تنتج وفرة جوفاء من النصوص التوليدية العملاقة والمكررة المطهرة بإيقاعها الميكانيكي من أي إضافة معرفية، أو عمق تحليلي، أو اشتباك أنثروبولوجي حقيقي؛ حيث تتحول البيانات الرقمية المتدفقة إلى سلطة خفية تعيد صياغة الوعي العام، وتفرض قالباً ميكانيكياً رتيباً يسحق الفكر النقدي الحر لصالح نظام إنفوقراطي موجه، ويدور في فلك تبييض مبالغ به يسقط السرد التاريخي والوجداني في فضاء الاستلاب الرقمي المعقم (Han, 2022)، وهنا يظهر جلياً أن الذكاء الاصطناعي لا ينتج معاني حقيقية، بل يعيد تدوير قوالب مسبقة الصنع وجاهزة، مما يقتل فرادة التجربة الإنسانية المباشرة ويحيلها إلى أسطورة معاصرة مفرغة من شحنتها السياسية والوجودية (Barthes, 1957) وتكمن خطورة هذا الهذيان الخوارزمي في أسبابه الكامنة وراء السعي الاستهلاكي لتسليع الفكر وتزييف الأرشفة والصور والأفلام الوثائقية، مستعيضاً بالإبهار التقني لخلق "النموذج المثالي الزائف" الذي يحل فيه التاريخ المصنوع رقمياً مكان الحقيقة التاريخية الإنسانية المهددة بالمحو والتصفية (Baudrillard, 1994)، إذ يتحول الفضاء الرقمي هنا من أداة لتوثيق الواقع إلى بديل عن الواقع، ليصبح هذا النموذج المثالي الزائف بمثابة ممحاة للتاريخ عبر صناعة نسخة رقمية ملساء ومستساغة من النضال الفلسطيني تزيح الأصل الدامي والصلب على الأرض وتحل محله.

إن هذا المحو التجميلي لا يحذف الحدث، بل يطهره من قبح وبشاعة الاستعمار المادي ليسحب منه دم الضحية وعفويتها، مما يؤدي إلى تفريغ الخطاب التحرري من ثقله الأخلاقي والسياسي. ويفرغ هذا التدجين النضال والكفاح الوطني من مضمونه المقاوم الفاعل على الأرض، عبر تحويل الفواجع الإنسانية إلى مجرد مشاهد وعروض بصرية ممتعة ومبهرة في فخ مجتمع الاستعراض الرأسمالي (Debord, 1967) مجرداً الضحية من خصوصيتها الوجودية وهشاشة معاناتها الحية تحت وطأة التهجير القسري، المجازر، حرق المحاصيل الزراعية، اقتلاع أشجار الزيتون من جذورها، تدمير المنازل وكافة البنى التحتية، وكل ما يرافقه من عنف مادي عياني على الأرض (Butler, 2004)؛ مما يتمخض في نهاية المطاف عن تراكم كمي كاسح وعبء إدراكي مستهلك يشتت آليات التركيز الإنساني، ويعيد تشكيل المسارات العصبية للتفكير البشري ليصبح أكثر سطحية وقابلية للتدجين والتبعية الرقمية (Carr, 2020)، ويحيله إلى خطاب مستهلك لا يمت بصلة لذوي الألباب وأصحاب العقول الحرة.

7. الأسر الاستعماري الإحلالي وهندسة "الفولكلور الانتقائي"

إنّ هذا الاستلاب المعرفي والتنميط الخوارزمي لا يقف عند حدود التمويه البصري، بل يؤدي مباشرةً إلى مأسسة الوعي وتأطير هوية المنتج الفكري، مستهدفاً الأصالة الثقافية في أبعادها البنيوية؛ إذ تحاصر الآلة الرقمية الهوية الفلسطينية في تجلياتها التعبيرية كافة، سواء أكانت صورة مرئية توليدية، أم نصاً سردياً مكتوباً. فالآلة لا تكتفي بتمويه المشهد البصري، بل تفرض نمطيتها على الكلمة المكتوبة والقصة الوجدانية بنفس الدرجة من الاستلاب الوجداني، صانعة نظاماً شمولياً جديداً يحكم السيطرة المعلوماتية. وهنا ينقل التنميط الخوارزمي الوعي الفلسطيني إلى مرحلة مأسسة شمولية؛ حيث تعمل الآلة على تفريغ الصورة والكلمة من مضمونهما النضالي، ويؤدي هذا الاستلاب المعرفي إلى حصار بنيوي يهدف مباشرة إلى إلغاء طاقة المقاومة الكامنة في التعبير الثقافي والفني، موجهة الفكر بأكمله عبر هندسة الإدراك الرقمي المعاصر (Han, 2022).

إنّ الإجراءات الملازمة لهذا الانتحال الرقمي تتبدى عبر المصفوفة الرقمية في مسارين؛ إذ يجتث أولاً الرموز الوطنية من سياق المقاومة وجذورها التاريخية؛ كالثوب الريفي، والدبكة، وأغاني الحصاد والمنجل، والتبولة، والقرية الفلسطينية بأزقتها وقبابها في الفنون التشكيلية والبصرية، لتمارس الآلة عملية "الفصل، المحو، الطمس، والتورية" للهوية الفلسطينية عبر تعريتها من شحنتها النضالية العاطفية، واختصارها في إطار انتقائي مبرمج وقوالب فولكلورية مستأنسة ومطهرة سياسياً لترضي خوارزميات المنصات العالمية وصناع الفكر المعاصر. إن جوهر أزمة هذا "التاريخ والفولكلور الانتقائي" يكمن في تحويل الرموز الوطنية العميقة إلى مجرد أساطير ممسوخة ومقتطعة من سياقها النضالي اليومي، وصور استهلاكية مفرغة تماماً من جذور الكفاح التي ولدت من رحمها، لتصنع

تاريخاً موازياً ومستعاراً وفولكلوراً سياحياً حالماً ومغترباً عن المعاناة الحية للناس (سعيد، 1998؛ Barthes, 1957).

ولا يقف التدجين الخوارزمي المبرمج عند هذا الحد، بل يتعداه إلى تسطيح أدب السيرة الذاتية في الفضاء الرقمي؛ وهي الكتابات والقصص الوجدانية التي يروي فيها الفلسطيني تاريخه الشخصي المعيش مع والده وجده، وحنينه إلى خبز أمه ورقائق جدته، وتجربته الوجودية في البيت المستلب. فالآلة تلتقط هذا المنتج الثقافي الحميم لتجرده من جذره السياسي وبنيته التاريخية؛ فبدلاً من أن يكون أدب السيرة الذاتية وثيقة إدانة صارخة، وشاهدة حية على مأساة اقتلاع شعب وتشريد في حفريات المعرفة والأركيولوجيا التاريخية والبحث الأنثروبولوجي الميداني عن جذور الفكر والوجود الأصيل (Foucault, 1972)، تحول الآلة هذه القصص الشخصية الحية إلى مجرد نصوص حالمة ومغتربة عن الواقع التجريبي والمعاناة اليومية. وبذلك، يعيد الاحتلال الرقمي أرشفة السيرة الذاتية الفلسطينية، التي تمثل خطابات مقاومة مكبوتة، ضمن مصفوفات الإقصاء السيبراني التي تحولها من وثائق إدانة إلى حكايات فولكلورية مغتربة، ليقع من ينزلق فيها في فخ نرجسي استعراضي ذاتي تجعل من المناضل الثقافي "مؤثراً رقمياً"؛ حيث يتم استعمار بياناته وتجربته المعيشة الحية واستلابها لصالح اقتصاد المنصات الرأسمالية المعاصرة (Couldry & Mejias, 2020)، فيُحوّل الوجع الجمعي للأرض إلى مادة براقة في فضاء المحاكاة المحضة، مجردة من صدمة النكبة الفلسطينية ومسبباتها الاستعمارية الإحلالية (Baudrillard, 1994).

إنّ جوهر أزمة هذه "الفولكلورية الانتقائية" يكمن في طريقة عمل الخوارزميات الرقمية التي تجمع بياناتها لتسود بها مفاهيم العرض والطلب والانتشار السريع؛ حيث يسهل عليها تحويل النمط الريفي من مطرزات، وزيتون، ودبكة، وتبولة، إلى مجرد بضاعة للعرض البصري الجذاب. في وقت تعجز فيه هذه الماكينة الآلية كلياً عن محاكاة التاريخ المدني المعقد بحواضره، عائلاته، تجارته، نخبه، ومؤسساته في مدن عريقة كالقدس، يافا، حيفا، نابلس، عكا، وغزة؛ مثلما يغيب في المنظومة المعلوماتية إدراك نمط الحياة البدوي المرتبط بالأرض والترحال في النقب. بيد أن الصورة هنا تبدو مختلفة وأكثر تعقيداً؛ فكلا البشر والآلة ليسا معصومين عن الخطأ؛ إذ إن تفكيك بنية الهوية الفلسطينية يكشف أن الهوية الحضرية والبدوية قد تم إسقاطهما وتهميشهما محلياً في وعينا الثقافي والبحثي، فلم تدخلا المصفوفة الرقمية أصلاً لتلتقطهما الآلة وتدورهما. وبناءً عليه، فإن الآلة لا تمحو الذاكرة من تلقاء ذاتها فحسب، بل إنها تقوم بـ "مضاعفة محو" تم في الأصل على يد المستخدمين والباحثين محلياً الذين همشوا الحواضر والبادية وحصروا الهوية في القالب الريفي فقط؛ لتتحول المقالة هنا من نقد التكنولوجيا الجافة إلى مراجعة إبستمولوجية ذاتية وحفر أركيولوجي في تقصير النخبة. فالاستعمار في فلسطين ليس استعماراً استغلالياً عابراً، بل هو بنية إحلالية تقوم على فلسفة اقتلاع الإنسان المالك للأرض واستبداله بالمستعمر، وهو ما يتماشى

حرفياً مع صدمة البتر واجتثاث الإنسان من الأرض ومحو ومصادرة جغرافيا الحواضر والبادية (سعيد، 1998؛ Khalidi, 2020).

وهنا تكمن جوهر الكارثة؛ فالتقصير المحلي لم يكن مجرد كسل بحثي عابر، بل هو قطيعة إبستمولوجية غير واعية سمحت للاحتلال السيبراني بإعادة صياغة الهوية الفلسطينية ضمن مشروعه الكلي؛ والمتمثل في محو الكينونة التاريخية المعقدة والامتداد البدوي لتثبيت الرومانسية البديلة الجاهزة، مما يعيد إنتاج أصل البنية الإحلالية للصهيونية مادياً وافتراضياً في آنٍ واحدٍ (سعيد، 1998؛ Couldry & Mejias, 2020). وهذا بدوره يولد انحيازاً خوارزمياً مضاعفاً يطمس ويمحو الذاكرة الوطنية ككل، من خلال استعمار شبكي خفي للبيانات الإنسانية وإعادة إنتاجها وتدويرها لخدمة متطلبات السوق والرأسمالية الرقمية المعاصرة التي تسلع الموروث الهوياتي والملامح المحلية التي تم تشويهها وتجزئتها مسبقاً. بيد أن هذا العجز الخوارزمي يتغذى ويستفحل في أصله من تقصير المستخدمين والباحثين أنفسهم، الذين تقاعسوا عن خوض معركة السيادة الرقمية وتغذية الفضاء السيبراني بكامل النسق المعرفية لمدننا وباديتنا الفلسطينية (Han, 2022).

والمؤسف أن تقابل خطاب بكائيات "حتى لا ننسى" التاريخي مع المنظومة الرقمية الخوارزمية قد تمخض –وبصورة غير متوقعة– عن تحويله إلى منظومة تطبيعية قسرية؛ إذ النتيجة النهائية لهذا التنميط الرقمي هي "تطبيع الجرح الفلسطيني"، ونزع الشحنة الثورية والسياسية من المأساة، وتحويل الإبادة والتشريد إلى مجرد بكائيات مقبولة ومستساغة دولياً وسيبرانياً كحالة بكاء مزمنة لا كحالة ثورة ومقاومة. فالخوارزمية لا تحذف الحزن، بل تستأنسه وتدجنه عبر تحويله إلى محتوى ترفيهي واستهلاكي عابر للمؤثرين وعابري السبيل، لتصبح الآلة هنا أداة ترويض سياسي تلتقط تيارات الفكر الرومانسية المشوبة بالحزن، وتصيغها في قوالب جاهزة تُحوّل هذا الحزن معها من تعبير حي وصامد إلى مجرد بيانات باردة تفرغ المأساة من جوهرها السياسي. وهي هندسة تبرز بوضوح السيطرة السرية للآلة الخوارزمية التي تتحكم في تدفق المعلومات وتصوغ الذاكرة الجماعية وفقاً لمنطق "الصندوق الأسود" المبرمج والمغلق الذي يُعري هندسة الآلة الخفية لتنميط الفكر البشري وتأطيره (Pasquale, 2015).

وهو ما يتجلى بوضوح في صور وشروح هؤلاء الرحالة الذين يدفعهم حنين سطحي لا يعدو كونه فضولاً طارئاً لزيارة القرى المهجرة، فيرفقون مشاهدها بنصوص ساذجة ومبسطة تعيد إنتاج المأساة بصورة نمطية باردة تهزم الشعار الإنساني الحار أمام الماكينة الرقمية، لتصبح بدورها جزءاً من ظاهرة غدا فيها عابر السبيل ورجل الشارع البسيط مُرحّبا بهما كجهابذة للبيان والبلاغة. وحيث تُحوّل هؤلاء الطارئون ليتصدروا المشهد بوصفهم "حماة وحراس الذاكرة"، في تهافت غريب يرحب فيه الفضاء الرقمي برجل الشارع البسيط ويمنحه صدارة البيان كخبير ومكتشف، ليتصدر المشهد الفلسطيني كمدافع أوحد وحارس أمين للذاكرة؛ منقادين في ذلك طوعاً للمنصات الرقمية

الجاذبة التي صممت بمصفوفات تخديرية تفسر بدقة كيف يسقط عابر السبيل والطارئون في فخ النرجسية، خاضعين طواعية لآليات الإيقاع والجرعة الرقمية اليومية التي يسود بها منطق سلطة الاستعراض الرقمي العابر على حساب العمق والحقيقة التاريخية الرصينة (Alter, 2018).

8. العصاب المتوافق وتناقض استراتيجيات المستخدم والوسيط الرقمي

يتبدى هنا تواطؤ سيبراني إنساني يكشف كيف تُحوّل الحنين من ملاذ عاطفي إلى استراتيجية بقاء قسرية تفرضها شروط النشر الافتراضي، ليفكك هذا التحول ذلك الفخ النفسي والبنيوي القسري الذي يقع فيه صناع الثقافة المعاصرون، مبرزاً "المعضلة الوجودية الكبرى" والمأزق القاهر الذي يعيشه المثقف والمناضل الفلسطيني في العصر السيبراني؛ حيث يتضح هنا مفهوم "الحجب الرقمي الناعم" وآليات "توجيه السلوك" (Noble, 2018)، فالمنصات الرقمية لا تمنع المستخدم من الحديث علناً، بل تجبره على تصفية مفرداته الثورية واللجوء لـ "الحنين الرومانسي المفبرك" كشرط وحيد ومفروض للمرور عبر قنوات النشر الافتراضي الرقمي، وتفادي تعرض الحسابات للإغلاق أو الحجب الناعم بدعوى مكافحة العنف والكراهية. فبينما يلوذ الفلسطيني بالحنين هرباً من ألم الإبادة والتشريد، تفرض عليه المنظومة الرقمية هذا الحنين فرضاً، ليجد الجميع أنفسهم هاربين نحو هذا الحنين المفبرك، ومقادين أمام معضلة وجودية قاهرة.

وتتبدى هذه المعضلة في وقوع المثقف بين مطرقة مقاطعة المنصات وترك الساحة للرواية الصهيونية المختلقة لتسود الفضاء الافتراضي وتستفرد به، وبين سندان الانصياع لشروط النشر والتصفيف الرياضي؛ إذ إن استعملوا هذه الوسائط وجدوا أنفسهم مجبرين على السير في مصفوفات لوغاريتمية مغلقة تفكر الآلة نيابة عنهم، وتقصي هويتهم الحية لتستبدلها بذاكرة مصنوعة ومستلبة. إنّ النتيجة الحتمية لهذا الارتماء القسري والتعامل اليومي مع هذا التصفيف الرياضي المغلق لا تشوه السردية فحسب، بل تمتد لتعيد هندسة الدماغ البشري والقدرات الذهنية للمستخدم بفعل التسلل التكنولوجي المستمر الذي يغير البنية الذهنية والمسارات العصبية للإنسان؛ محولاً هذا الواقع إلى قمة درجات الاستلاب التقني الذي يمحو قدرة الإنسان على التركيز والتحليل والاشتباك النقدي الصلب مع واقعه المادي والحقيقة المعاشة على الأرض (Carr, 2020).

ويتداخل هذا المحو الإدراكي مباشرةَ مع آليات رأسمالية المراقبة (Zuboff, 2019)؛ إذ إن هذا الاعتماد الملحوظ على الذكاء الاصطناعي لا يخرج في جوهره عن كونه محاولة لتضميد وتهدئة ما يستعر في الصدور من غضب وانقباض من مستقبل يراه الجميع حالك الظلام، عبر الالتجاء إلى عالم افتراضي بديل يجدون فيه السلوى عن واقع أليم؛ حيث تتقابل هنا الرغبة الإنسانية بالهروب من فداحة الحاضر وهجرة النخب المعرفية وتجريف طبقة المثقفين الوسطى، مع آليات الكبت والإزاحة النفسية من الفاجعة الفلسطينية. وتتشابك هاتان الحاجتان في تواطؤ متشارك وتلاق في استراتيجيات يتطابق فيها عجز البشر مع برودة الآلة الخوارزمية ضمن

"عصاب متوافق" يُفضي إلى الالتجاء الاختياري نحو حلم بديل في فردوس مفقود صوناً للوهم (Freud, 1920; Pasquale, 2015)، وتكمن الخطورة الإبستمولوجية الفذة لهذا التواطؤ الصامت في كونه يصنع مساراً تعويضياً مبرمجاً تلتقي وتتوافق فيه الأهداف الإنسانية والآلية عند شفرة واحدة: إنتاج نصوص وصور ملساء، معقمة، ومستساغة بصرياً وسيبرانياً، مفرغة تماماً من شوائب المعاناة والدم والدموع، لتشترك الآلة والإنسان معاً في جريمة طمس الذاكرة التاريخية. ويفرض هذا التنميط سطوته عبر سلطة رقمية شبكية وغير مرئية تتغلغل في الإدراك وتفضي إلى استعمار داخلي للوعي الفردي ذاته وتدجين الذات، صانعاً خطراً وجودياً داهماً يربط بين البنية التقنية والامتداد الزمني للذاكرة البشرية التي يهددها الشطب والتشويه بآلات الحذف الرقمي المعاصرة (Stiegler, 1998). فلا يحتاج الغريم هنا إلى جندي مرئي في الفضاء الافتراضي، بل يدفع المستخدم للسير طوعاً داخل القوالب المبرمجة، ليتحول إلى رقيب مبرمج على ذاته يراقب أفكاره ويقيدها طوعاً تماشياً مع معايير المنصات خشية التغييب والحجب الرقمي الناعم؛ لتغدو المنظومة الرقمية في محصلتها آلة مطلقة للهيمنة والسيطرة. وينتقل هذا الاستلاب من تزييف الأرشفة والصور إلى الاستعمار الداخلي للوعي، لينتهي بتحويل القضية من معركة تحرر مادية ونضال فاعل على الأرض، إلى خطاب حلم جميل، وذكريات رومانسية، وحنين إلى الوطن محبوس في قالب شاعري مصطنع ومغترب تماماً عن المعاناة اليومية المعاشة (Zuboff, 2019; Althusser, 1971).

9. الجريمة التقنية لنظام "أدوبي" ومجاز طنجرة الضغط

لقد بات الإحساس بالقهر، ومن واقع الاحتلال المرير، ملاذاً من مواجهة الهيمنة المستبدة من جانب، والتملص من مخاض ومعاناة التفكير والكتابة من جانب آخر، يجد الطمأنينة والأمان في أحضان الذكاء الاصطناعي في العالم الافتراضي البديل؛ سعياً وراء تخطي مبدأ الألم والبحث عن مسكنات نفسية تقي وعيهم صدمات الواقع المعاش (Freud, 1920)، في مفارقة تفصل بوضوح بين الهزيمة أمام الواقع السياسي من جهة، والهروب من الالتزام الإبداعي والمعرفي من جهة أخرى؛ وهو ارتماء اختياري في فضاء التقنية يطمس دور الإنسان كصانع وحيد للحضارة ومسؤول عن أدواته، محولاً المجتمع الإنساني وأفراده من مستخدمي الذكاء الاصطناعي إلى مجرد تروس صماء تخدم المنظومة السيبرانية الباردة وتحيد الإرادة البشرية الحية (Wiener, 1954). إنّ انتشار آفة الغش والخداع والانهزامية في الفضاء السيبراني، المفتقر لأي ضوابط أو رادعٍ أخلاقي، جعل الرسام المدعي للفن يلوّن الصورة التاريخية دون غضاضة ليظهرها كلوحة فنية ويطهرها من قبح الواقع، في وقتٍ يخضع فيه آخر تلك الصورة لنظام "أدوبي" لطمس معالمها الحقيقية بدعوى تحسين جودتها وإضافة رومانسية زائفة، مرتكبين بذلك جريمةً تقنيةً تُحوّل بشاعة وقبح مجازر الإبادة والتهجير الواقعية إلى لوحات فنية جميلة ومستساغة بصرياً، ليكون هذا التجميل الاصطناعي أشد أنواع الطمس لأنه يستبدل دم الضحية وعفويتها بكليشيهات ترفيهية باردة (Noble,

2018). وثالث يصنع أفلاماً وثائقية تزيف بواقعها الممسوخ والمصطنع حقيقة الواقع الوطني؛ فبعد أن كانت الأفلام وصناعة السينما في الزمن الجميل أداة وسلاحاً للمقاومة لتوثيق الهوية وحفظ الذاكرة الحية بعفويتها وصدقها التاريخي، غدت اليوم وسيلة مبرمجة لطمس أزمة الفلسطينيين في ظل حروب الإبادة وسياسات التهجير والتشتيت، وتوظيف تكنولوجيا لتمويه القضية الفلسطينية والكفاح الوطني بالأمر الواقع والتعايش معه؛ وهي جريمة تزييف كاملة تقع في فخ مجتمع الاستعراض الرأسمالي المعاصر، الذي يستبدل الحقيقة بالتصنيع البصري ويحول النضال والمآسي البشرية إلى مجرد مشاهد وعروض بصرية ممتعة ومبهرة ومفرغة من مضمونها المقاوم على الأرض (Debord, 1967). ولقد أضحى خطر هيمنة الذكاء الاصطناعي على المشهد الفلسطيني يطبق كلياً على الخطاب الفلسطيني المرتبط بالأرض والهوية والذاكرة، ليضع هذا المأزق الحقيقة عارية؛ فتقويض الحضور الفلسطيني رقمياً وتدمير السردية ليس عطلاً تقنياً عابراً أو خطأ في النظام، بل هو هندسة سياسية واعية تقترن مع ترسانة المحو المادي على الأرض، حيث تعمل الآلة السيبرانية كامتدادٍ بنيويٍّ وأيديولوجيٍّ عبر أجهزة الدولة الأيديولوجية للآلة الاستعمارية المادية الجاثمة في الواقع (Althusser, 1971) لتنقلنا من نقد الذكاء الاصطناعي كأداة تكنولوجية إلى تفكيك البنية الاستعمارية الشاملة، وتكمل في الفضاء الافتراضي ما بدأه التشريد والمجازر المادية منذ النكبة الأولى عام 1948؛ إذ إنّ الآلة السيبرانية ليست كياناً محايداً أصابه عطل بل هي امتداد وعي وهندسة سياسية مكملة للمحو المادي على الأرض، كجزء لا يتجزأ من الرأسمالية المراقبة الشاملة التي تستولي على السلوك الإنساني والتجربة المعيشة وتحولها إلى بيانات يتم هندستها لتوجيه المجتمعات والسيطرة المطلقة على مستقبل الشعوب وحقها في تقرير مصيرها وحماية روايتها (Zuboff, 2019).

وأمام هذا الإطباق السيبراني الشامل، يتضح أن الأغلبية العظمى من المتشدقين بالمعرفة، ومدعي الفكر، وثلةٍ من الباحثين في التاريخ، باتوا يلوذون بالفرار من الواقع المعاش، متجنبين مواجهة الحقيقة الصعبة في ظاهرة ثقافية معاصرة تضعنا أمام خوفٍ وجودي صارم تجاه المستقبل (Kierkegaard, 1843). وتحت تأثير هذا الانجذاب الأعمى وسهولة الانزلاق في فخ الغواية الرقمية، استوى بين عشية وضحاها الأُمّيُّ وشبه المتعلم، المثقف والجاهل، غادين سواسيةً من حملة الأقلام؛ كسلاً وهروباً من مخاض الكتابة والبحث المضني، والعمل ليلاً نهاراً. لقد وجد هؤلاء –من أشباه المثقفين والأنصاف والمتثاقفين– في الذكاء الاصطناعي ما وجدته جداتنا وأمهاتنا حين اكتشفن طنجرة الضغط (Pressure Cooker)؛ حيث يطبخن الطبخة ويقمن بالمهمة بأقل جهدٍ ممكن، ناهيك عن إمكانياتهم الفكرية المتوسطة ذات المستوى الهابط، وما ينتجونه من كلام مبتذل ورخيص فكرياً يعجز تماماً عن محاكاة الأصالة المعرفية، لتأتي الوعود الخادعة وتقوم بإيهام المتلقي بوجود "وعي تقني" قادر على فهم الخصوصية الثقافية، في حين أنها ليست سوى وعود كاذبة لمنظومة عاجزة عن التفكير البشري (Chomsky et al., 2023).

10. الهروب من مخاض العمل الأدبي وسلب شرف المكابدة

إنّ هذا الاستسهال في استعمال الذكاء السيبراني واستدعاء نصوصه المعلبة، يعكس خشيةً دفينة لدى هؤلاء الكتّاب من خوض غمار مخاض العمل الأدبي أو الفني؛ ذلك المخاض الصعب والمؤلم بطبيعته، والذي يتطلب بالضرورة جهداً مضنياً، ومثابرة واعية، ووقوفاً باسلًا أمام آلام عملية الخلق الفكري. فالآلة الرقمية توفر لهم أسهل الحلول وأسرعها ليرضوا غرورهم ونرجسيتهم الرقمية دون عناء، لتسلبهم في المقابل شرف المكابدة الإنسانية وعناء المخاض المعرفي؛ ذلك المخاض الذي ينبثق أساساً من قلق الوجود والرجفة الحية التي تحرك الذات الواعية بمواجهة الفقد والشتات (Kierkegaard, 1843). وشتان بين الإبداع البشري بأحاسيسه ونبضه وأسلوب تفكيره الذاتي بشوائبه وعثراته، وبين المنتج الصناعي الآلي المعقم؛ فالإنسان كائنٌ تضطرم بداخله مختلف الأحاسيس والتعقيدات النفسية التي تلقي بظلالها على رؤيته للواقع، ليتسامى وعيه عبر تفاعله وجدلية علاقته بذاته ومحيطه، ومن ثمَّ يبدع عبر العمل الدؤوب ومواجهة التحديات في خلق الاتصال الحي مع هذا الواقع، بما يحمي هويته التاريخية من الضياع. وهو ما يناقض تماماً طبيعة الذكاء الاصطناعي المنغلق عن الواقع في نظامه الآلي الجامد؛ إذ يفتقر هذا النظام لمرونة العقل ورجفة الوعي الإنساني الأصيل، مما يؤدي في نهاية المطاف إلى اغتيال الهوية وضياع أصالتها المعرفية والبصرية والوجودية (Carr, 2020; Stiegler, 1998). لقد آن الأوان لندق ناقوس الخطر؛ فإذا ما استلب هذا النظام السيبراني المغلق والذكاء الخوارزمي مكان الذكاء البشري متقمصاً دوره ومنتحلاً معالمه، إذ يؤدي هذا الاستحواذ –لا محالة– إلى تضئيل الكامن خلف فضول الإنسان للمعرفة وشغفه باستكشاف آفاق جديدة، وهي الكامنة خلف قدرة الذكاء البشري على المغامرة الفكرية، والتحرر الروحي والتأمل العميق، والتحليق عبر ربطه بين العلاقات، وعبر تداعي الأفكار المنبثقة من الواقع التجريبي الفردي؛ هذا الواقع الفردي كما أشار إليه سيغموند فرويد وجاك لاكان في تفكيكهما لأعماق الذات واللاوعي (Lacan, 1966; Freud, 1920)، والبعيد تماماً عن نمذجة الآلة المبرمجة رياضياً، فإنه سيهدد حتماً باغتيال الهوية الذاتية، والتي تعدّ بمثابة أهم قلاع الفكر الإنساني.

11. المنظور الختامي: "التعادلية" الفكرية وحكمة الترويض الحضاري

في وجه هذا التهديد عبر الاختزال الرقمي وإجراءات المحاكاة الزائفة، نسترشد بما فككه ميشيل فوكو في نقده لتاريخ الأنظمة المعرفية (الإبستيمي) حول كيفية صياغة الخطاب، حين حذر من مغبة تحويل الإنسان إلى موضوعٍ تجريدي داخل المنظومة الرقمية الباردة التي تُحوّل المعرفة من مسارٍ إنساني منفتح وإشعاعي، يتميز بالسمو والتعقيد الوجودي، إلى منتجٍ احتمالي متوقع ومكرر إحصائياً (Foucault, 1966; Foucault, 1972). وفي مواجهة هذا الاختزال الآلي، يتجلى التميز الإنساني الفريد الذي أشار إليه الحكيم (1955) من خلال مذهبه "التعادلية"؛ حيث يرى أن المعرفة الحقيقية والإبداع البشري لا يقومان على العقل المادي الجاف وحده، بل يقومان

على التعادل والتوازن الدقيق بين منطق العقل وإيمان القلب وشعوره، مُجسّداً الأفكار في معانٍ مطلقة ترتدي أثواب الرموز الحية التي تفتح أفق الفكر داخل الذهن البشري نحو المطلق، والسمو فوق الواقع المادي، بخلاف الآلة المغلقة على مصفوفاتها الإحصائية والآلية، المفرغة تماماً من ذلك الجوهر العصي على الرقمية الذي لا تلتقطه إلا العين والروح الإنسانية الحية (Chomsky et al., 2023; Han, 2022).

إنّ موقفنا الإنساني حيال هذا الغريم الآلي هو مأزقٌ وجودي، يضعنا اليوم على مفترق طرقٍ تاريخي وحاسم، يفرض علينا حكمة الترويض بدلاً من الانكفاء؛ فالذكاء الاصطناعي ليس مجرد تهديد، بل هو قلمٌ يتوقد بموسوعيةٍ عظيمة وطاقةٍ معرفية خطيرة، يوجب علينا ألا نرتكب في مواجهته "الحماقة الفكرية" المتمثلة في التخلص من القيمة الإيجابية للأداة خشيةً من مساوئها وسلبياتها (Wiener, 1954). إنّ المحك الحقيقي يكمن في كيفية ترويض هذه القوة وكبح جماحها لتصبح مطيةً نطوعها لأهدافنا الحضارية؛ فلا نتركها لتتحول إلى "صندوق باندورا" الذي يفتح باب الجحيم وينطلق منه تزييف الوعي وتبييض التاريخ (Noble, 2018)، ولا نتعامل معها برعونةٍ تهدر طاقاتها كـ "الجني في مصباح علاء الدين" الذي تُضيّع فرصه العظيمة بسبب سوء الاستعمال (Alter, 2018; Zuboff, 2019). فإذًا، نحن اليوم أمام شجرة معرفة في إطار معاصر؛ وما أشبه موقفنا الراهن بموقف آدم وحواء أمام الشجرة المحرمة؛ تلك الشجرة التي لولا خوض تجربة معرفتها لما انفتحت آفاق بشريتنا، ولما أصبحنا بشراً نملك حرية الاختيار وعناء المسؤولية الفكرية. ومن ثمَّ، فإن الغاية ليست في معاداته، بل في ألا يقود تفكيرنا الشخصي والتأملي أو يعلّبه هذا الذكاء الاصطناعي بنمذجته المنفصمة عن الواقع؛ بل أن تتدخل الحكمة الإنسانية كركيزة صلبة لتطويعه كأداة مرنة طيعة، لنظل نميز بوعيٍ يقظ بين الأصيل والزائف في كل ما هو مرتبط بهويتنا الذاتية، وإبداعنا الإنساني، وبمختلف مساهماتنا الحية في إثراء المشهد الفلسطيني الحضاري والمقاوم (Kierkegaard, 1843).

12 خاتمة

تخلص الدراسة إلى أن الذكاء الاصطناعي لم يعد مجرد أداة تكنولوجية محايدة، بل تحوّل إلى امتداد أيديولوجي وبنيوي للاستعمار الإحلالي الرقمي، يعمل على إعادة هندسة الوعي الفلسطيني وترويضه عبر "العصاب المتوافق" بين المستخدم والآلة. فقد أدت هيمنة المصفوفات الخوارزمية، مقترنةً بنزيف النخب وهجرة العقول، إلى إفراغ السردية الفلسطينية من شحنتها الثورية والوجودية، وتحويل مأساة الإبادة والتهجير إلى "واقع فائق" مُبيّض سيبرانياً، وفولكلور انتقائي مُستهلك يخدم رأسمالية المنصات. وفي ظل هذا الاستلاب، تآكل مفهوم "حراس الذاكرة" ليغده شعاراً نرجسياً يستعرضه الطارئون وعابرو السبيل، هرباً من مخاض الكتابة ومواجهة الواقع الأليم. وإن الخروج من هذا المأزق الوجودي لا يكون برفض التقنية أو الانكفاء، بل بـ "حكمة الترويض الحضاري" و"التعادلية" الفكرية؛

لاستعادة السيادة الرقمية، وتطويع الآلة كأداة لمقاومة المحو، وصيانة النبض الإنساني الأصيل للجرح الفلسطيني بدمه وعفويته وخصوصيته التي تعجز الخوارزميات عن محاكاتها.

13. التوصيات

- تحقيق السيادة الرقمية وتغذية الخوارزميات من خلال إطلاق مبادرات أكاديمية ومجتمعية رقمية لتغذية قواعد البيانات بالذاكرة الفلسطينية المعقدة والشاملة (بما يشمل الحواضر المدنية، والبوادي، والنخب الفكرية)، لكسر احتكار "الفولكلور الريفي الانتقائي" الذي تفرضه المنصات العالمية.
- تأسيس "مقاومة رقمية نقدية" من خلال تطوير برامج توعية نقدية للمثقفين وصناع المحتوى الفلسطيني حول آليات "التبييض السيبراني" و"التدجين النفسي الناعم"، لتمكينهم من تفكيك الزيف الخوارزمي واستعادة عفوية السرد الذاتي.
- إعادة تأهيل مفهوم "حارس الذاكرة" من خلال تحويل هذا اللقب من مجرد هاشتاغ استعراضي نرجسي على منصات التواصل، إلى مؤسسات أرشيفية رقمية جادة تقودها النخب المتخصصة لتوثيق الانتهاكات والموروث الحضاري بمنهجية أنثروبولوجية رصينة.
- مواجهة تداعيات هجرة العقول رقمياً من خلال إنشاء شبكات افتراضية تربط النخب الفلسطينية المهاجرة والمشتتة بالخارج، لتوظيف طاقاتهم الفكرية في قيادة المشهد الرقمي الفلسطيني، وسد الفراغ الذي تركه غياب الطبقة الوسطى وتسلط "الطارئين" والذكاء الاصطناعي.
- ترسيخ منهج "التعادلية" في الإنتاج المعرفي من خلال تشجيع المبدعين والكتاب على عدم التفريط في "شرف المكابدة" ومخاض الكتابة، واستخدام الذكاء الاصطناعي كأداة مساعدة (مطية) وليس بديلاً عن الروح الإنسانية والقلق الوجودي الذي يميز الإنتاج الفكري الأصيل.
- فضح "الجريمة التقنية" للمحو الجمالي من خلال مقاطعة وتوثيق ممارسات تجميل وتبييض صور المجازر والتهجير عبر أدوات الذكاء الاصطناعي (مثل أنظمة الفوتوشوب والخوارزميات التوليدية)، واعتبارها شكلاً من أشكال التطبيع مع جريمة الإبادة، والعمل على أرشفة الصور بواقعها العياني القاسي كشهود إثبات.

المراجع:

المراجع العربية:

الحكيم، توفيق. (1955). *التعادلية: مذهبي في الحياة والفن*. مصر، مكتبة الآداب بالجماميز.

سعيد، إدوارد. (1998). *الثقافة والامبريالية*. (ترجمة كمال أبو ديب)، (ط 2)، بيروت، دار الآداب.

المراجع العربية بنظام الرومنة:

Alhkym, Twfyq. (1955). *alt'eadlyh: mdhby fy alhyah walfn*. msr, mktbh aladab baljmamyz.

S'eyd, Edward. (1998). *althqafh walambryalyh*. (trjmh kmal abw dyb), (t 2), byrwt, dar aladab.

المراجع الأجنبية:

Althusser, L. (1971). Ideology and Ideological State Apparatuses (Notes towards an Investigation). In *Lenin and Philosophy and Other Essays* (B. Brewster, Trans.). New Left Books.Alter, A. (2018). *Irresistible: The rise of addictive technology and the business of keeping us hooked*. Penguin.

Barthes, R. (1957). Mythologies, éditions du Seuil. *Paris.(trad. It. Miti d'oggi.(1974). Torino: Einaudi)*, *1*.

Baudrillard, J. (1994). *Simulacra and simulation*. U of Michigan P.

Bender, E. M., Gebru, T., McMillan-Major, A., & Shmitchell, S. (2021, March). On the dangers of stochastic parrots: Can language models be too big?. In *Proceedings of the 2021 ACM conference on fairness, accountability, and transparency* (pp. 610-623).

Butler, J. (2004). *Precarious life: The powers of mourning and violence*. verso.

Carr, N. (2020). *The shallows: What the Internet is doing to our brains*. WW Norton & Company.

Chomsky, N., Roberts, I., & Watumull, J. (2023). Noam chomsky: The false promise of chatgpt. *The New York Times*, *8*(4), 177-179.

Couldry, N., & Mejias, U. A. (2020). *The costs of connection: How data are colonizing human life and appropriating it for capitalism.* Stanford University Press.

Debord, G. (1967). *La société du spectacle*. Buchet-Chastel.

Derrida, J. (1967). *De la grammatologie. Paris: Les Éditions de Minuit 1976 Of Grammatology. Trans. by Gayatri Chakravorty Spivak.* Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Foucault, M. (1966). *Les Mots et les Choses: Une Archéologie des Sciences Humaines*. Gallimard.

Foucault, M. (1972). *The Archaeology of Knowledge (AM Sheridan Smith, Trans.)*. Pantheon. New York.

Foucault, M. (1975). *Surveiller et punir: Naissance de la prison*. Édition Gallimard.

Freud, S. (1920). *Beyond the Pleasure Principle*. International Psycho-Analytical Editorial Office.

Han, B. C. (2022). *Infocracy: Digitization and the crisis of democracy*. John Wiley & Sons.

Lacan, J. (1966). *Écrits*. Éditions du Seuil.

Lévi-Strauss, C. (1958). La notion de structure en ethnologie. *Anthropologie structurale*, 303-50.

Noble, S. U. (2018). Algorithms of oppression: How search engines reinforce racism. In *Algorithms of oppression*. New York university press.

Pasquale, F. (2015). The black box society: The secret algorithms that control money and information. In *The black box society*. Harvard University Press.

Ricoeur, P. (1984). *Time and narrative, Volume 3* (Vol. 3). University of Chicago press.

Russell, S., & Norvig, P. (2020). *Artificial intelligence: a modern approach, 4/E*. Pearson.

Saussure, F. de. (1916). *Cours de Linguistique Générale* (C. Bally & A. Sechehaye, Eds.). Librairie Payot.

Zuboff, S. (2019). *The Age of Surveillance Capitalism: The Fight for a Human Future at the New Frontier of Power*. PublicAffairs.

Khalidi, R. (2020). *The hundred years' war on Palestine: A history of settler colonialism and resistance, 1917–2017*. Metropolitan Books.

Qannam, S., & Eisheh, J. A. (2023). Settler Colonialism and Digital Tools of Elimination in Palestinian Jerusalem. *Jerusalem Quarterly*, (96).

Deleuze, G., & Guattari, F. L. (1987). *A Thousand Plateaus: Capitalism and Schizophrenia (B. Massumi, Trans.)*. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.

Stiegler, B. (1998). *Technics and time, 1: The fault of Epimetheus* (Vol. 1). Stanford University Press.

Wiener, N. (1954) *Men, Machines, and the World About*. In: Galderston, I., Ed., Medicine and Science, New York Academy of Medicine and Science, International Universities Press, New York, 13-28.

Kierkegaard, S. (1843). *Either/Or. In R. Solomon (Ed.), Existentialism (2nd ed., pp. 8-14, Swenson, D. & Swenson, L. Trans.)*. Oxford University Press.